القسّام وسيرته الجهادية

بيان نويهض الحوت، **الشيخ عزالدين القسّام في تاريخ فلسطين**، بيروت: دار الاستقلال للدراسات والنشر، ١٩٨٧.

تكتسب دراسة الشخصيات التاريخية أهمية خاصة، لما تتضمّنه حركتها من تأثيرات في الحياة العامة، وبشكل يتعذر معه الفصل بين ما هو ذاتي (شخصي) وما هو موضوعي عام.

ولعل دراسة الشخصيات التاريخية الفلسطينية، في المرحلة الراهنة، تدل على ما وصلت اليه الدراسات التاريخية الفلسطينية من تخصص، وما تمكّنت من التعرض اليه بشكل متعمق. وفي هذا الاطار، أثارت، ولا تزال تثير، شخصية عزالدين القسام العديد من الاسئلة، لاسيما ان ما قام به القسام شكل حدثاً ملهماً في تاريخ الثورة الوطنية الكبرى في فلسطين (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩)، وجاء في وقت لم تكن القيادة السياسية الفلسطينية قد حسمت امرها ازاء «اللاتعاون» مع الانتداب البريطاني، ورفع راية مقاومته؛ اضافة الى ان القسّام، نفسه، لم يكن شخصية خلافية في الوسط الفلسطيني، بل تمتع بسيرة حسنة في مختلف الاوساط، على تباين آرائها.

من حيث الموضوع، يمكن اعتبار كتاب بيان نويهض الحوت عن القسّام وحدة متكاملة. ونظراً الى ما تمتع به من ايجاز، يمكن تقسيم هذه الوحدة الى فقرات متتالية مترابطة، تمكّنت، في مجموعها، من تقديم شخصية القسّام في تاريخ فلسطين، بشكل موجز، وغير مخل.

بدأ الكتاب في وصف معركة يَعْبَد الشهيرة، التي وقعت بتاريخ ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥ بين عصبة من المجاهدين بقيادة القسّام وبين القوات البريطانية، اسفرت عن استشهاد القسّام. وجاء وصف المعركة استناداً الى رواية مراسل جريدة «الجامعة الاسلامية»، التي نشرت بتاريخ ٢٠/١١/١٩٣٥، وهي الرواية ذاتها التي استشهد بها معظم من كتبوا عن القسام. وخلصت الكاتبة، في نهاية مدخلها، الى طرح السؤال التالي: «ما هو سر الاجماع على قائد ما أراد القيادة ؟ أو... ما سر القسام ؟». وأجابت: «ان ذلك السؤال المبسّط يتطلب العودة الى فلسطين عشية مرحلة القسام، والى سيرة الرجل المجاهد، وسيرة صحبه المجاهدين، وأخيراً الى الجديد الذي طرحه القسّام».

ولرسم صورة الوضع العام، خصّص الكتاب فقرة خاصة عن فلسطين سنة ١٩٣٥، وما اكتنف أوضاعها السياسية والاجتماعية من اضطراب واضح، جرّاء القوانين البريطانية الهادفة الى اقامة «وطن قومي» لليهود في فلسطين، وبروز مشكلة الاراضي، ولجوء الصهيونيين الى الاستيلاء على الاراضي بواسطة الجنود المسلّحين، كما حصل في وادي الحوارث، اضافة الى بروز مشكلة التسلّح الصهيوني، وذلك بعدما تمّ اكتشاف شحنة للأسلحة في ميناء يافا، كانت معبّأة في ثلاثة وسبعين برميلاً. وفي المقابل، وازاء ما شهدته فلسطين من حالة غليان شعبي عارم، «لم تكن القيادة السياسية، آنذاك، قد اختطت لنفسها نهجاً ثورياً بعد». وبعد رسم صورة الوضع الفلسطيني سنة ١٩٣٥، انتقلت الكاتبة الى تفاصيل معركة يعبد، باعتبارها «اعلاناً لثورة وتجسيداً لنهج»، ثمّ الى استشهاد القسّام، ووصف جنازته في حيفا بتاريخ ٢١/١١/١٩٣٥، مستعرضة، بعد ذلك، نشأة القسام، وحياته، بدءاً من ولادته في جبلة ـ اللاذقية (شمال سوريا) سنة ١٨٧١، مروراً بانتقاله الى مصر للدراسة في الازهر، تلميذاً على يد الشيخ محمد عبده، وكذلك التطرق الى علاقاته مع رشيد رضا؛ ومن ثمّ عودته الى